افتوشنكو
يتحدّث عن فنّه الشِعري

اجرت هذه المقابلة اولغا كارلايل

حينما اجريت مقابلة مع بوريس باسترناك لمجلة « ذي باريس ريفيو » عام ١٩٦٠ ، كان الامل كبيرا في موسكو بحصول انتعاش ادبي عام في روسيا . هذا الامل لم يتحقق — والاحداث التي عقبت ادانة خروتشيف للفن الحديث في معرض مانيج في اواخر عام ١٩٦٢ ، وضعت حدا لهذا الامل . اما الآن ، في عام ١٩٦٥ ، فالشعور المسيطر على الحلقات الفكرية الروسية مزيج من فراغ الصبر والملل والتعب ، ومع هذا فهو لا يخلو من حدة وزخم خفيين . ويتميز المشهد الادبي بهدوء سطحي ، يعود الى التدابير المضايقة (ولكن غير الكابحة) التي تصدر عن السلطات ؛ لكن خلف هذا الهدوء ثمة رجال ذوو مواهب وعواطف متقدة ينتجون مخطوطات لا تنشر احيانا كثيرة، لكن هذه المخطوطات لا تبقى دائما غير مقروءة ، لحسن الحظ.

في عام ١٩٦٥ ، يخبرني افتوشنكو انه ما يزال يؤمن بامكانية التوفيق بين ماركسية متجددة وبين الاستقامة والامانة الادبية ؛ وان النظام الحالي لا يتضارب والنمو الانساني والفني . هذا الموقف موقف قلق اليوم في موسكو ، حيث المذهب الجمالي الوحيد المصرح به هو مذهب الواقعية الاشتراكية. فان يحمل المرء رأيا خاصا به يتطلب بطولة — اضحت اليوم علامة افتوشنكو المميزة . وهو يحتاج الى هذه البطولة، لانه في الحقبة التي تلت حكم خروتشيف مباشرة لا يجابه العقائديين الدوغماتيين الرسميين فحسب ، بل يجابه ايضا الكثيرين من اتباعه الاصغر سنا منه ، الذين ينتقدون الآن هذا الزعيم ، زعيمهم لبضع سنين خلت ، لكونه غير راديكالي كفاية .

التقيت يفجيني افتوشنكو لاول مرة خلال شتاء عام ١٩٦٠ ، حينما كان يرتفع في موسكو الكثير من الاصوات الشعرية الجديدة . لم يكن قد جرى التشهير بستالين رسميا بعد ؛ وكان المرء لا يزال يصادف تماثيله وصوره الشبيهة بالاقنعة هنا وهناك . ومع ذلك ، فقد كان الناس يشيحون بنظرهم عن صوره ويتجنبون ذكر اسمه . اما وجود معسكرات

الاعتقال في ظل النظام الستاليني فلم يكن يذكره احد الا في حلقات صغيرة من الاصدقاء وراء الابواب الموصدة ، ومع هذا كان يحس المرء ان الجميع منهمكون في نوع من التقصي الخاص ، في عملية سرية لفرز الحقائق عن الاكاذيب .

كان اهل الفكر يشعرون شعورا متزايدا بجو الفراغ الذي يعيشون فيه منذ امد بعيد. وفي اجتماعاتهم بي ، بدا معارفي الجدد احيانا كأنهم جترقون جدار بعض مخاوفهم القديمة للمرة الاولى : الخوف من معاشرة احد الغرباء ، ومن بعث الماضي ، ومن الاعراب عن آرائهم الصريحة . كان المناخ رهيبا نوعا ما – لكنه مناخ مفعم بآمال مبهمة كذلك .

في ذلك الحين كان يفجيني افتوشنكو قد ذاع صيته في حلقات موسكو الادبية ، لكن وجهه وشخصيته لم يكونا مألوفين بعد للملايين من الناس في الاتحاد السوفييتي وفي الغرب . وكنت قبيل رحلتي بزمن يسير قد قرأت بعض قصائده في مجلات ادبية روسية. كانت هذه القصائد قصائد صريحة ، تطلق فوحا خاصا من فوح الشباب – نوعا من الصحافة الشعرية تفيض بهجة وحيوية ، متحررة تماما من العبارات المبتذلة الجاهزة حول الحياة السوفييتية.

ولدى وصولي الى موسكو استفدت من معرفة والدي بالشاعر واتصلت به هاتفيا . فدعوته الى تناول الشاي معي بعد ظهر احد الايام ، كما ذكرت له ان والدي يطلب منه ديوانا من دواوينه الشعرية يحمل توقيعه . وقبل افتوشنكو دعوتي واظهر لي مودة بالغة على الهاتف ، على انني ادركت انه وجد طلب والدي ساذجا . قال : « من الواضح يا اولغا فاديموفنا انك قدمت الى موسكو منذ عهد قريب . فطبعات الدواوين الشعرية تباع وتنفد على الفور في بلادنا. وقد اختفت العشرون الف نسخة من آخر دواويني الذي يضم قصائد مختارة من شعري، في غضون يومين. لم تبقَ منها نسخة واحدة». واضاف بحرارة: « ولكنني ساتلو عليك بعضا من شعري الجديد » .

كنت اقيم في وسط موسكو ، التي كانت آنئذ مدفونة تحت طبقة كثيفة جدا من الثلج . وكنت احتل ، في فندق متروبول القاتم الضخم ، جناحا من الغرف المفروشة على الطراز الفكتوري . وكانت جدران الغرف مكسوة بالخشب وتتدلى منها ستائر ثقيلة بطريقة تليق تماما بالصيت الذي اكتسبه فندق المتروبول منذ امد بعيد بوصفه مكانا يراقب موظفوه النزلاء الاجانب وزائريهم مراقبة شديدة ، وربما يتجسسون عليهم كذلك . ولكن في اصيل اليوم الذي زارني فيه افتوشنكو ، ما ان وصل وخلع معطفه ، ونفض نديف الثلج عن قبعة الفرو الرمادية التي كان يلبسها ، وقدم لي باقة كبيرة من الليلك النابت في الحرارة الاصطناعية ، حتى اشرق جناح غرفي القاتمة بشكل ظاهر .

افتوشنكو شاب مديد القامة جدا ، ذو شقرة ترابية ورأس صغير يعلو جسما رياضي

فارعا ، وعينين زرقـاوين فاتحتين هزليتين ، وانف نحيف في وجه مستدير ، وعادات صريحة كانت مفاجئة في موسكو تلك الايام . جلس في الغرفـة ولم يكترث بمحيطها الكئيب ، بل راح يتكلم عن الشعر الروسي بدون ديباجة . فتكلم عن نفسه ، وعن شاعر العشرينات العظيم ، مـاياكوفسكي ، ثم انتقل الى الحديث عن الشعراء السوفييت المعاصرين . ولاحظت في الحال كرمه نحو زملائه الشعراء ؛ فقد ذكر العديدين منهم ، وامتدح قصائدهم ، واستشهد بمقاطع كاملة من بعضهـا . قال : « ان فوزنسنسكي واحمدولينـا هما اكثر شعرائنا اليوم وعدا بالعطاء . ان احمدولينا تسير في التراث الروسي العظيم للشاعرات ، امثال اخماتوفـا وتسفيتاييفا . انه تراث الشعر الغنائي العالي النقي الصافي. انها زوجتي» (قال مبتسما) «ويجب ان تلتقي بها. اما انا فانتمي، للاسف، الى تقليد شعري اقل عظمة وفخـامة . فشعري تمليه عادة الاحداث المعاصرة، والعواطف الفجائية — لكن هذه هي طبيعة موهبتي ... حين يحركني تأثير عميق ما ، احس بحافز لان اطلق مشاعري ولان اسكبها شعرا على الفور » . وبينما كان افتوشنكو يتكلم ، نهض واقفـا ، وراح يتحرك في ارجاء الغرفة ، ويجلس على التوالي في كل من المقاعد الوثيرة المختلفة . الى ان استقر اخيرا على الكنبة المخملية الزرقـاء الغامقة ، وساقاه الطويلتان متقاطعتان ، وممدودتان بعيدا في الغرفة . غير انه ما لبث ان نهض واقفا من جديد ليلقي قصيدة من قصائده ، وهي واحدة من قصائد عدة اهداها الى مايا كوفسكي :

ما الذي حطم مايا كوفسكي ،
والقى مسدسا في يده ؟
فلنقدم بعض الحنان
له بصوته العظيم ، ونبلِهِ .
— الاحياء كثيرو الازعاج
والحنانُ لمن باتوا في امان الموت .

في غرفة الجلوس الكبيرة — التي لم يكن يضيئها غير مصباح طاولة — كان افتوشنكو حضورا شاذا تضخمت كل حركة من حركاته فى تمثيلية ظلال ضخمة على الجدران . راح يلقي الشعر ، وبروفيله المدبب على نقيض غريب مع وجهه الدائري ومع عظمتي خديه العاليتين ، ويداه الطويلتان ترقصان الاسطر باشارات عريضة من حين لآخر . القى الشعر باندفاع مسرحي ، وصوته الجهوري يبعث الحياة في القصائد ، مخفيا مـا فيها في بعض الاحيان من ضآلة وهزالة بين طيات موجة من العواطف . كان صوته يملأ الغرفة ، وهو ينظر فوق رأسي الى بعد متخيل ، خالقا فيّ الوهم باني في قاعة عمومية كبرى بين صفوف وصفوف من المستمعين المستغرقين المذهولين .

القى من الذاكرة جزءا طويلا من قصيدة يحبها حبا خاصا بعنوان «فتاة صغيرة بشعة»، للشاعر زابولوتسكي الذي يكبره سنا . وهي ، كقصيدته هو المهداة الى مـاياكوفسكي ، دعوة الى المزيد من الرفق والرأفة في الحياة اليومية . وجلس افتوشنكو ، وخيم الصمت ، ثم تكلم ثانية في دفق جياش متزايد من التصاريح: «ان الحاجة الى اعادة الدفء الى حياة الناس هي المهمة الاكثر الحاحا الملقاة على عاتقنا . هذا وحده يستطيع انقاذنا ، وانقاذ الكوكب كله . كما ان الشعب الروسي قد طال عهده بالآلام . وانه من واجبنا نحن الآن ان نفعل شيئـا بهذا الشأن . ان نخلق مناخ رفق ورأفـة ، ان ندع الشعب يتفتح ويزهر من جديد . كيف سنعوض ابدا عن الجور والظلم ، عن الحماقة والدماء ، ان لم نبدأ الآن ؟ ليس ثمة ما يمنع هذا الازهار في مجتمعنا الشيوعي، بل ان الامر على النقيض من ذلك تماما؛ على انه يتوجب علينا اولا التغلب على مخاوفنا الداخلية ... الكثيرون من الشعراء تمكنوا من ذلك ، ولم يعد هنالك ما يحبس الالهام فيهم : فجميع الموضوعات الكبرى في زماننا اصبحت موضوعاتهم . امـا كتّاب النثر فيواجهون صعوبات اعظم . ذلك ان النثر الروسي كابد لسنوات من الرقـابة الخانقة ، في حين ان تأثير هذه الرقابة في الشعر كان اقل وأخف وطأة لان الشعر ينتشر شفهيا بمنتهى السهولة . على ان هناك عدة كتّاب نثر يعدون باشياء عظيمة من بين ابناء جيلي : قصة دودينتسيف « حكاية العـام الجديد » تظهر بوضوح انه نضج منذ ان كتب « ليس بالخبز وحده » . ثم هناك يوري كازاكوف الذي يجب ان تقرأيه في الحـال : فهو في رأيي احسن كاتب نثر في الجيل الجديد . انه يكتب في تقليد متجدد ، لكنه تقليد روسي عميق ، اعني به تقليد انطون تشيخوف : وموضوعه الرأفة ... »

استنكف افتوشنكو عن الشروحات التفصيلية ، وتوقع مني ان افهم ، وربمـا ان اشاركه اعتقاداته ، التي اعرب عنها في جمل سيابة مليئة بالاستعارات القديمة الطراز . ومع هذا ، وبالرغم من كل بلاغته ، فانه لم يهدر اي وقت في حديث هامشي او مسلٍّ. وخيل اليّ انه يستحوذ عليه دافع الوصول مباشرة الى الحقيقة ، وفي هذا ذكّرني بعض الشيء بصعاليك « البيتنكس » في نيويورك . قال : « لقد دخلنا عصرا جديدا . واخذنا باسم الشيوعية نفتش عن الحقيقة — في انفسنا ، وفي الآخرين » . واضاف ، معربا عن اعتقاد روسي تقليدي : « وفي كثير من الاحيان نجدها في اناس اكثر بساطة . الحقيقة دقيقة حساسة كغرسة طرية. لقد صمدت وعاشت رغما عن شتاء قاسٍ ، وستنمو الآن ».

كان افتوشنكو مسحوراً بفكرة الانتلجنسيا الروسية القديمة ، وخاصة بمـا اتصفت به من روح عالمية شاملة . قال : « على العالم ان يستعيد هذه الروح اذا كان يريد البقاء ». وتكلم عن مولد انتلجنسيا جديدة في الاتحاد السوفييتي ، قال : « ان ذلك كأن تحاولي

الامساك بمجرى ماء في راحة يدك . ينساب معظم الماء خارجا لكن قليلا منه يبقى محفوظا في ضمة اليد. وهذا ما يحدث الآن. فنحن واولادنا سنحتفظ في النهاية بهذه الكمية القليلة من الماء ضد التيار العام – لكن التيار العام المتزايد ابدا هو بالطبع موضع اهتمامنا الاول . واننا نستمد الايمان بمستقبل روسيا من حقيقة ان الحكومة السوفييتية قد تمكنت من فتح عالم الكتب الجيدة لجماهير الشعب ... » .

خلال حديثنا كله – الذي بدا لي احيانا كنوع من المسرحيات الاخلاقية ، يتكلم افتوشنكو فيه باسم اتحاد سوفييتي دينامي مطهر بينما آخذ انا دور الغرب – كان يعود الى مشكلة اكتشاف افكار موحّدة من شأنها ضمان السعادة والسلام لروسيا ولبقية العالم. وخامرني شعور بانه يرغب في اسماع المثقفين الغربيين صوته عن طريقي . وكان شديد الفضول فيما يتعلق بحياة المثقفين في الغرب ، وبالحركات الاخيرة في الرسم والكتابة ، وطرح عليّ اسئلة كثيرة عن شعراء « البيتنكس » وعن رسامي المدرسة الحركية في نيويورك .

وجيء بالشاي ، وتحول حديثنا نحو الدور الخاص للشعر في روسيا الايام الراهنة . تكلم افتوشنكو عن الجماهير العظيمة المسحورة التي تصغي الى الشعراء الشبان ، وعن طبعات لمجموعاتهم تصل الطبعة الواحدة منها الى خمسين الف نسخة وتباع كلها في يوم واحد (ولا يعاد طبعها الا حسب ما تمليه « الخطة » وليس حسب ما يمليه الطلب عليها). ولم اسمعه ابدا يتكلم عن هذا الامر بمثل البلاغة التي تكلم بها عنه في هذا اللقاء الاول الذي تناولنا فيه الشاي . ففي تلك اللحظة من التسامح السياسي المتزايد كان هو نفسه قد اخذ يزن ويقدّر قوة الشعر – وبصورة خاصة قصائده هو – وقوة شخصيته . ذلك ان قوة الشعر الذي يعرب عن مشاعر الجمهور التي طال انحباسها كانت عند ذاك اكتشافا جديدا نوعا ما بالنسبة اليه : في ذلك الحين كان الشعر ، نتيجة للعدد المتزايد ابدا من حفلات القراءة العامة التي كان يقدمها هو وغيره من الشعراء الشبان ، قد ابتدأ لتوّه يحمل وعدا بالصدق في جميع انحاء روسيا : كان ذلك هو الاسفين الاول الذي يدكّ في نظام ضخم متماسك من الافكار وردود الفعل الجاهزة .

كان افتوشنكو في سبيل التحول الى رمز وطني : فكان التشهير بالستالينية وادانتها يدشنان على مستوى الشعر . وعند نهاية حديثي الطويل معه ، ادركت انني قد سمعت صوتا عاما مقنعا ، ناطقا بلسان جيل بكامله . فها هنا شخص اكبر من الحياة واكثر اشراقا منها، لكنه كذلك بطل رومنطيقي تقليدي من نوع ما: فقد قلد افتوشنكو مايا كوفسكي، او بالاحرى قلد صورة صاغها مايا كوفسكي – هي صورة شاعر بروليتاري مزدهٍ شاب من شعراء الثورة. والصفة المباشرة التوكيدية التي تطبع اسلوبه كله اعطت وزنا عظيما لكل ما

قاله ، حتى وان كان زهوه وقفة متصنعة ، او لعبة متعمدة ، الى حد ما . ذلك ان افتوشنكو يملك موهبة خاصة للارتجال في الحياة الحقيقية كما في شعره: وباستطاعته، حين يشاء ، ان يؤلف قصيدة حول موضوع يعين له ، في فترة بعد الظهر من يوم واحد .

اني اذكر قوة خياله وتصوره البراقة التي اظهرها في كل لقاء من لقاءاتي اللاحقة به . ولانه عادة ما يكون محط الانتباه ، فقد كان يدرك بداهة الامكانات الدراماتيكية في الحالات والاوضاع المختلفة ، وفي الافكار الحديثة المثيرة ، فيتلقفها بنهم ، كممثل ، كشاعر ، عازما على دمغ الاحداث العابرة بطابع لا يمحى ولا ينسى ، عن طريق شخصيته . وهو يعترف بهذا الميل الى التمثيل، وينسبه الى ميل مماثل لدى باسترناك ، الذي « مثل حياته تمثيلا نبيلا » : علما بان تمثيل افتوشنكو يختلف عن تمثيل باسترناك في اي وقت كان من حيث ان سلوك الاول ينم عن مزيد من الجهد الواعي وعن مزيد من التعمد . وفي وقت لاحق من ذلك الشتاء التقيته في لينينغراد، يشرب الشمبانيا في وسط اصدقائه ويقدم نخبا منمقا رائعا تمجيدا لبوشكين ، الذي كنا نزور مدينته : « الى بوشكين ، الذي تفوح منه روائح الثلج والشمبانيا ... » . وبعد ذلك التاريخ بعام واحد رأيته في نيويورك في حفلة استقبال اكاديمية ، حيث القى قصيدته الخفيفة الروح التفاؤلية، « على دراجة » ، وبعدها اجاب على العديد من الاسئلة السياسية الشائكة ، مفحما ، بذكائه وبدهائه الظريف ، الجمهور الوقور المعادي بعض الشيء للاتحاد السوفييتي . وفي سيارة اجرة في موسكو خلال شتاء ١٩٦٢ الخالي من الهموم ، تلا قصيدته « اغنية البيتنكس » . كنا اربعة ، في طريقنا الى اتحاد فناني موسكو حيث كان صديق افتوشنكو ، الرسام يوري فاسيلييف — نتيجة للجو السياسي المتسامح المرن الذي ساد في تلك الفترة — سيتحدث عن افكاره حول التجارب في الفن . وفعلت « اغنية البيتنكس » فعل الكهرباء في جمهور افتوشنكو الذي يتألف من خمسة اشخاص ، بما فيهم سائق السيارة الذي توقف هنيهة عند محاذاة الرصيف ، وذلك ، كما قال ، « كيما أتذوق جمال الفن تذوقا تاما دون ان اعرض حياتكم للخطر » . وبدت القوافي الروسية غير المعقدة كثيرا، رائعة اذ راح يلقي القصيدة :

... القرن العشرون عقد لساننا وحيّرنا .
كانت الاكاذيب ثقيلة كالضرائب .
وكبذار الهندباء البرية
تطايرت الافكار بعيدة عن النسمة الحية ...
وضحكت ايدينا وهي تصفق
وابتسمت اقدامنا وتراقصت ...

رأيت افتوشنكو مرات عديدة في موسكو خلال ربيع ١٩٦٢ . وكانت قد طرأت تغييرات عظيمة على موسكو منذ زيارتي الاولى لها . فبدت الآن اكثر انشراحا وانشغالا ، وبات من الصعب التجول فيها ، فابناء موسكو يصارعون للعثور على سيارات اجرة شاغرة — وكان قد جرى تخفيض في اجرها . وخيل اليّ ان احوال الناس قد تحسنت عما كانت عليه في شتاء ١٩٥٩ — ١٩٦٠ . وخيم على المدينة جو كجو الاعياد طوال اسابيع عديدة : ففي تلك السنة صادف وقوع احتفال اول ايار (مايو) في ذات وقت الاحتفال بعيد الفصح الاورثوذكسي . وكان الطقس دافئا . وتعرضت موسكو لغزو المتسوقين من خارج المدينة . فكانت الفلاحات يحملن اكياس التسوق المنتفخة بالحاجيات المشتراة من متاجر موسكو المليئة بالسلع على انواعها — بكل ما يلزم لتحضير « الباسكا » و « الكوليتش » التقليديين لعيد الفصح . وبدت النساء كأنهن انبثقن عن اعماق روسيا ، بمناديلهن وبتنانيرهن الواسعة وبوجوههن المستديرة . وكانت المناسبة مناسبة سياسية كذلك الى حد بعيد : فكنت ترى صور لينين في كل مكان ، وارتفعت في المدينة اعلام حمراء وزرقاء فاتحة لا تعد ولا تحصى . ولم يظهر ان في تصادف الاحتفالين معا اي تنافر ، بل على نقيض ذلك تماما : فمعظم الموسكوبيين كانوا يخططون لعطلة نهاية الاسبوع بحيث يستفيدون الى اقصى حد من كلا الاحتفالين معا .

اما افتوشنكو فكان ودودا ومنفتحا كعهده ابداً ، ويتألق الآن في وهج النجاح : فكان الناطق شبه الرسمي بلسان الشبيبة المتحررة ذهنيا . وكان قد سافر الى الولايات المتحدة ، والى اوربا ، والى كوبا بوصفه مراسلا لصحيفة « برافدا » ، وفي كوبا توطدت الصداقة بينه وبين فيدل كاسترو ؛ وسرت شائعات بانه على وشك ان يسمح له بالانضمام الى الحزب . وكان قد تم طلاقه من الشاعرة البارعة اللامعة بيلا احمدولينا ، وينعم الآن بزواج سعيد من فتاة زرقاء العينين اسمها غاليا . وغاليا اكبر سنا بعض الشيء من افتوشنكو ، وهي سمراء متزنة ذكية ذاع عنها في موسكو انها تتمتع بذوق ممتاز في المسائل الادبية .

كان افتوشنكو و غاليا قد انتقلا لتوّهما الى شقة تقوم في مجموعة كبيرة جديدة من المباني تم تصميمها خصيصا لا عضاء اتحاد الكتّاب وعائلاتهم. وتقع على مبعدة من وسط المدينة ، على الطريق الرئيسي الى كييف ، في منطقة جديدة سريعة النمو ، حيث تشيد مباني السكن الطوبية العالية بجوار منازل الضواحي الخشبية القديمة . ولم تكن المنطقة قد اخذت شكلها النهائي بعد ، وكانت الشوارع المحفورة ما تزال لا تحمل اسماء لها . وداخل المباني ، كانت الشقق لا تزال بدون ارقام .

اما شقة افتوشنكو فكانت قد تمت زخرفتها على نمط خاص شائع في موسكو :

مسحة سكندينافية معاصرة وقليل من الفوكلور – دمى فخارية اوكرانية جميلة – ممتزجان بقطع تبدو انها من مخلفات سنوات العشرينات ، ومقاعد مليئة بزوايا غير عملية وبرسومات هندسية معقدة . وكان تأثيرها ، على العموم ، مبهجا وكريما مضيافا .

كانت تلك الايام اياما صاخبة بالنسبة للشاعر ولزوجته : فقد كانا على وشك ان يغادرا موسكو الى لندن في رحلة رسمية . وكانت شقتها مسرحا لحركة دائبة من الذهاب والاياب : غاليا توضب الحقائب ، ورنين الهاتف الذي تم تركيبه مؤخرا لا ينقطع . ومر الاصدقاء بها لوداعها . وجاء الكثيرون ليتفرجوا على مجموعتها من اللوحات : فكان افتوشنكو ، الفخور جدا بهذه المجموعة ، قد انتهى لتوّه من تعليقها . ولاحظت انها ، كزخرفة الشقة ، توحي بطابع يعود عهده الى العشرينات ، ومعظمها اعمال سريالية فظة نوعا ما لرسامين من موسكو ، لكن بعضها لوحات جيدة كذلك . وكانت هناك لوحة ضخمة حلوة للرسام نيهونوف ، تمثل رجالا يلعبون الورق ؛ ومجموعة من التصاوير للنحات ايرنست نيزفستني ، قوية وتعبيرية (وكان نيهونوف و نيزفستني الهدفين الرئيسيين للهجوم الرسمي في معرض مانيج في آخر ١٩٦٢) ؛ وعدة لوحات تجريدية جيدة كان افتوشنكو قد عاد بها من كوبا .

على الرغم من هذه العجلة وافق افتوشنكو على ان اجري معه مقابلة لمجلة « ذي باريس ريفيو » . وتناولت العشاء عند افتوشنكو وزوجته في المساء الذي عين لاجراء المقابلة . لم يكن الظلام قد خيم حينما جلسنا لنتناول عشاء يتألف من شرائح اللحم ومن البندورة الصغيرة الناضجة التي يعتبرها افتوشنكو طعامه المفضل . وكان هناك طبق ضخم من هذه البندورة الصغيرة ، وقد انسجمت مع الزخرفة المشرقة التي ابدعها صديق افتوشنكو ، الفنان المتعدد المهارات يوري فاسيليف الذي استخدم ملاعق خشبية مدهونة ومعالم اوكرانية شعبية للتخفيف من القياسات والابعاد التقليدية للمطبخ ، حيث كنا نتناول الطعام . ومن خلال النافذة دخل الى المطبخ عبير التشيرموخا (وهو زهر الحور الرومي الذي كثيرا ما يظهر في الشعر الروسي ، وكنت اجهل اريجه الثقيل حتى ذلك الربيع) . وكانت الشمس تغرب ببطء وراء منظر طبيعي من الاشجار الخضراء ورافعات البناء الضخمة .

كان افتوشنكو وزوجته في مزاج ممتاز . واحيينا المناسبة بالشمبانيا . وهكذا كانت المقابلة ، كالكثير من الاعمال التي يقوم بها افتوشنكو ، تتصف بشيء من الارتجال الساحر ، وسبقتها احاديث حيوية وانخاب منمقة كثيرة ، وهي جزء مهم من ولائم الاحتفالات الروسية . واخيرا ، عندما ازيلت الاطباق والاطعمة عن الطاولة وانهمكت غاليا بتوضيب الحقائب في الغرفة المجاورة ، انتقلت وافتوشنكو الى غرفة الجلوس .

كانت هذه الغرفة تضم مكتب الشاعر، وهو مصمم على النمط السكندينافي الكثير التنميق والاتقان ، بخطوط مكورة ، وعليه صورة شمسية ضخمة تمثل همنغوي في اواسط عمره ، وصورة اخرى تمثل كاسترو ممهورة بامضائه — صورتان لالهين ملتحيين يترأسان اجتماعنا . ومضينا نشرب الشمبانيا السوفييتية العذبة الرائقة .

رفض افتوشنكو الاجابة على تلك الاسئلة التي كانت تشغل عليّ تفكيري بشكل خاص في ذلك الحين ، بخصوص التيارات الدولية في الادب — او العلاقات والمقارنات الممكنة بين بعض الشعراء السوفييت وجيل الشبان من الكتّاب الامريكيين . لكنه اظهر سرورا واضحا للاجابة على اسئلة اخرى ، خاصة على ما اتصل منها بالفن . كانت تحيط بنا اعمال لفاسيلييف و نيزفستني ، وحول هذه الاعمال بالذات ابتدأ افتوشنكو كلامه . وعندما تدرجنا في المقابلة ، جلس الى مكتبه وراح يضرب اجوبته على الآلة الكاتبة ، مقاطعا نفسه احيانا ليتلو قصيدة ما تشدد على النقطة التي اراد ابرازها وتبيانها. كان بادي الانشراح والراحة، ينهض احيانا ليمشي في ارجاء الغرفة وليسرح نظره خارج النافذة ، فتتجلى في حركاته الطاقة المتململة القلقة التي تذكرتها من لقائي الاول له .

« في نظري ، ان ايرنست نيزفستني هو النحات الاكثر موهبة بين النحاتين العاملين اليوم في الاتحاد السوفييتي . ان نيزفستني نحات من طبقة هنري مور . ومع هذا ، فان ايرنست مايزال في الثامنة والثلاثين من عمره ، وقد نشأ في مناخ فني روسي خالص . واعماله هي مثال ممتاز على موقف من الفن متمركز تماما لكنه مبعثر باتجاه الخارج في آن معا . ان هذا الموقف يبعث البلبلة في المتفرج الغربي ، لانكم تقدّرون الوحدة السلسة السطحية في الاسلوب تقديرا عاليا جدا . لكن نيزفستني هو واقعي بالمعنى السامي الجليل للكلمة . في نظري ، ان الواقعية في الفن تشمل كل ما تمليه الحياة بصورة مباشرة وآمرة . على ان اعمال نيزفستني الاكثر واقعية تشتمل دائما على عنصر خيالي فانتستيكي ، على بعد في العمق ، في حين ان اعماله التصويرية تحتفظ بعنصر من عناصر الواقعية . ويعجبني بيكاسو للسبب عينه : فاصطفائيته الخارجية هي في الواقع مظهر لاعلى انواع التركيز . ان بيكاسو نار ، قد يمتد لهيبه في جميع الاتجاهات ، لكن جوهره واحد على الدوام .

« اما فاسيلييف فيملك الدافع عينه الذي يدفع بيكاسو ، فهو يريد ان يجرب كل شيء — الزيت ، السيراميك ، المعدن ، الفسيفساء ، الحجر ... وهو يجازف ، ولا يخشى الاخفاق ؛ بل انه حين يقلد الآخرين تقليدا صريحا ، فانه ينجح في البقاء هو نفسه . ان طاقته تثير الدهشة . ومع انه قد لا يكون منتميا الى الخيط الرئيسي العام للفن الحديث ، الا انه اشبه بعقدة تمسك بهذا الخيط الذي قطع ابان عهد « عبادة الشخصية » . الا ترين ان ثمة فضيلة عظيمة في ان يكون المرء عقدة ، حتى وان تكن عقدة بدائية غير متقنة ،

تقوم بمحاولة جسورة لجمع الاطراف المقطعة معا ؟ » (قال افتوشنكو هذا، شاعرا انني لا اكنّ اعجابا عظيما للكثير من الرسم الطليعي السوفييتي ، المليء برموز جلية الى حد ما ، مستوحاة من عهد السريالية) . ولما كنت ادرك ان افتوشنكو يهتم بالفن على ذلك النحو الروسي الخاص الذي يعتبر الرسم امتدادا للادب وليس عالما قائما بذاته ، ورغبة مني في تجنب جدال حول الموضوع – لانه كان بيننا خلاف قديم مستمر حول موضوع الرسم – ، فقد سألته عن رأيه في مستقبل الشعر السوفييتي .

اجاب : « ان تغييرات مفرحة تتم في حياتنا في هذه الايام بالذات ، وقد باتت هذه التغييرات ملموسة في انحاء وعوالم كثيرة. ففي عالم الادب، تتجلى هذه التغييرات اكثر ما تتجلى في الشعر . ثمة تيارات شعرية جديدة كثيرة في روسيا الآن ، وهي اشبه ما تكون بعدد كبير من الخيل تعدو ويسابق بعضها البعض الآخر ، فتقلب وتخرب حجارة الارصفة المشوشة في تفكير الايام الغابرة ...

« ان البعض مستمر بالطبع في التفكير بافكار حجارة ارصفة ، ولكن النظر الى الشعر الروسي اليوم بمنظار التهكم والشك يكاد يشكل جريمة في رأيي . ففي اي مكان آخر من العالم يملك الشعر ما يملكه في الاتحاد السوفييتي من وقع وتأثير ؟ وفي اي مكان آخر يعرب الشعراء عن اعمق مطامح بلدهم ؟ »

ثم اخبرني افتوشنكو عن « يوم الشعر » ، وهو مهرجان سنوي اتسع نطاقه بصورة مطردة ، وبات يتميز الآن بنشر ديوان سنوي يضم مجموعة من قصائد الشعراء المسهمين في المهرجان .

« حينما اقترح الشاعر فلاديمير لوغوفسكوي لبضع سنوات خلت ان تقام في خريف كل عام حفلة عامة لالقاء الشعر ، لم يؤمن الجميع بنجاحها ؛ لكن يوم الشعر هو الآن جزء من الحياة الروسية ، ومؤسسة فيها ، ومناسبة للابتهاج الشعبي ... ففي هذا اليوم ، يعتلي الشعراء المناضد والخزانات في المكتبات، ويبيعون دواوينهم المهورة بتواقيعهم، ويقرأون قصائدهم ، ويجتمعون بقرائهم . يجري هذا في جميع انحاء البلاد ، لكنه في موسكو يتخذ نطاقا واسعا جدا . ففي ذلك المساء ، يجتمع شعراء موسكو بالقرب من تمثال مايا كوفسكي ويقرأون قصائدهم ثانية ، على انهم يقرأونها هذه المرة امام جمهور ضخم يتألف من ثمانية آلاف او عشرة آلاف نسمة . ويقف المستمعون ساعات طويلة ، حتى وان كانت رياح تشرين الاول (اكتوبر) تعصف بشدة . وفي بعض الاعوام كانت تتساقط الثلوج في ذلك اليوم ، لكن الجمهور لم يكن يتفرق ؛ بل كان يظل واقفا يصغي في العاصفة » .

وحاولت ان اقول له ان انعدام وسائل اللهو الشعبي قد يفسر جزئيا وجود عدد عظيم من متذوقي الشعر .

لكن افتوشنكو احتج قائلا : « كلا ، كلا . فتلك القراءات ليست تفاهات منظمة . لا يمكن لاي نشاط فني ، غامض مغلق كالشعر ، ان يكسب عددا عظيما من الاتباع اذا لم يكن لديه شيء ناضج يقوله . اذهبي الى اية مكتبة من مكتبات موسكو ، وحاولي ان تبتاعي مؤلفات اخماتوفا الشعرية ، او دواوين بيلا احمدولينا او بوريس سلوتسكي او اندريه فوزنسنسكي. كل ما سيفعله بائعو الكتب هو انهم سيهزون اكتافهم ...

« برأيي ان هناك عاملين قد يفسران هذا الامر . الاول ، ان الشعراء الذين ذكرتهم منذ لحظات هم شعراء حقيقيون صادقون — لقد مضى وانقضى الى غير رجعة ذلك الزمان الذي كان فيه الناس يتملقون زعيم البلاد عن طريق قرض الشعر ويسمون انفسهم شعراء . على انه يوجد عندنا في الاتحاد السوفييتي ، كذلك ، العديد من القراء الممتازين ، المرهفي الحس والذين يعرفون ان يميزوا بين الجيد والرديء . لا يعني هذا القول ان الشعراء الذين ذكرتهم قبل قليل (والكثير غيرهم من الشعراء المجلين الذي لن تعني اسماؤهم شيئا بالنسبة للغربيين) يكيفون انفسهم حسب ذوق القراء ، مهما كان هذا الذوق راقيا رفيعا. بل على العكس ، يعمل هؤلاء الشعراء على شحذ الذوق العام ، ويقولبون هذا الذوق ويوسعونه ، وهذه هي اهم وظيفة يقومون بها . وبهذه المناسبة ، اقول لك ان جميع الشعراء الذين اتكلم عنهم لا يمكن ان يكون واحدهم اكثر اختلافا عن الآخر مما هم في الواقع . فلفوزنسنسكي « اسلوب ذري » من نوع ما ، مليء بالبرمات واللفات الايقاعية التي تبهر الانفاس . وتتميز احمدولينا بالانضباط ، وهي صائغة كلمات مدققة ، ومع هذا فهي وجدانية غنائية ، ومن صميم زماننا . ومن الناحية الاخرى ، نجد ان بوريس سلوتسكي محروم من الدفعة الذرية كل الحرمان ، فهو نحات احجار ، شاعر عنده من الرجولة ما عند الحجّار . اما مارتينوف فيمكنه ان يكون غامضا مبهما ، ومخترع احجيات . وفي شعره تحتجب الافكار الفلسفية العميقة تحت قناع غنائي رشيق .

« بين الشعراء المتقدمين في السن ، يبرز الكساندر تفاردوفسكي ، بيد انه لم يعد يحركنا ويؤثر فينا الآن بالقدر الذي كان يفعل في الماضي » (تفاردوفسكي هو احد رؤساء تحرير مجلة « نوفي مير » الادبية الفصلية ذات الميول التحررية ، ومؤلف قصيدة « تيركين في العالم الآخر » ، وهي القصيدة التهكمية المعادية للستالينية التي نشرت عام ١٩٦٣) . « انه برأيي شاعر عظيم ، لكن شعره يفتقر الى السحر — ومهما يكن من امر ، فهذه هي موهبته الشعرية . ان ما حلم به مايا كوفسكي ذات مرة ، يحدث الآن تحت ابصارنا :

شيء واحد يهمني فحسب :
ان يكون هناك شعراء ،

شعراء عديدون ، ممتازون ، مختلفون !

« انه من تقاليد الشعر الروسي ان يتقصى تلك الاسئلة التي تحركنا اكثر من غيرها وتؤثر فينا ايما تأثير ، بدءا من التساؤلات السياسية المعقدة الى النقاط السيكولوجية الدقيقة ... لم يكن الشعر الروسي ابدا مقتصرا على الشعر الوصفي ، او السيكولوجي ، او الارشادي التهذيبي ، او الموسيقي الغنائي. (انني اتكلم الآن عن الشعراء المجيدين ليس الا ، فهم وحدهم يمثلون الشعر الروسي) . الشعر الروسي يتألف من جميع هذه العناصر ، لكنه يشتمل عادة كذلك على قدر من التفكير السياسي الجدي .

« ان جميع شعرائنا المبرزين دون استثناء يواصلون اليوم هذا التقليد . ولهذا السبب تحبهم الجماهير . ولهذا السبب تتفجر الواح زجاج النوافذ وتتكسر في قاعات الاجتماع العامة حيث تقام حفلات قراءة الشعر . ويصعب على افراد فرق المليشيا ضبط الجماهير المتشوقة لسماع الشعراء. فهذه الجماهير نبيهة عميقة ، سريعة الاستجابة ، وكثيرا ما تكون متحمسة . غير انه ليس ثمة ما هو هدام او فاضح في حفلات القراءة تلك، كما يزعم البعض احيانا ... واذا كان هناك اناس يبدو لهم ان الاهتمام بالشعر هو مبعث للفضائح ، فاننا لن نعبأ بهم . فهذه «الفضائح» اختارها الشعب .

«لا يتألف جمهور مستمعينا من طغمة هستيرية تعيش على هامش المجتمع. بل انه يتألف من العمال ، ومن الطلاب، ومن العلماء . ونحن الشعراء نشعر ان اهتمامهم وثقتهم بنا هي الى حد ما خطوة الى الامام باتجاه المستقبل . وسوف نحاول الا نخيب املهم » .

وسألته عمن يعتبرهم اساتذته الادبيين . قال :

« انني احاول دائما ان آخذ كل ما يهمني من اي كان – واحاول مع هذا ان ابقى انا نفسي – كما ترين ، انا اعود الى فكرتي، فكرة الفن الاصطفائي – ومع هذا فهو فن مركز تركيزا متينا ثابتا، تحافظ على تماسكه الداخلي قوة شخصية المرء. ولكن لاقل ان بوشكين هو الشخص المفضل لديّ في الآداب الروسية قاطبة. واحب ايضا بلوك، ومايا كوفسكي، وباسترناك ... وقد اثر اسينين في نتاجي . جميعهم اعانوني بطرق مختلفة ، وفي كثير من الاحيان بطرق ظاهرة جلية . وسيسعدني ان اعلم علم اليقين ان بيتا واحدا من ابياتي الشعرية سيخدم شاعرا ما في المستقبل . وفي الواقع ، ان طموحي الفني هو هذا : ان اكون قادرا على كتابة مثل هذا البيت ... بهذه المناسبة ، انا احب وولت ويتمان . كما انني اميل الى بول فرلين ، بسبب الوتر الموسيقي في شعره . قد يبدو لك الامر غريبا ، لكنني كتبت قصيدة ذات مرة تحت التأثير المباشر لقصيدة « اغنية الخريف » . » .

سألته : وماذا بشأن التأثيرات الغربية المعاصرة ؟

فقال افتوشنكو: «في رأيي ، ان تأثير همنغوي هو التأثير الاقوى هنا. كما ان مؤلفات

ريمارك الباكرة تقرأ على نطاق واسع. اما سان اكزوبري فلم يصلنا الا في الآونة الاخيرة، وبامكان المرء ان يجد عناصر من وحيه في النتاج السوفييتي المعاصر. وقد لاقت رواية سالينجر نجاحا عظيما . اننا منفتحون جدا على الكتّاب الغربيين ، وقد نستعير اساليبهم احيانا . على ان هذه الاقتباسات لا تنجح الا احيانا ؛ وكثيرا ما يثبت في النهاية انها عقيمة . ومن الناحية الاخرى ، فانها تفضي في بعض الاحيان الى شيء اساسي ، وتساعدنا على النمو .

« مثال ذلك ان احد الشعراء السوفييت متأثر الى حد بعيد بالتنغيم الشعري عند جاك بريفير ، لكن هذا التنغيم يتحول في شعره الى شيء جديد كل الجدة وروسي تماما . وعند فوزنسنسكي ثمة مزيج غريب من رمبو في قصيدته « الزورق السكران » ومن اصوات النشاز والتنافر كما في شعر الين غينزبيرغ ، لكن فوزنسنسكي يبقى شاعرا اصيلا كل الاصالة ... »

هنا رن جرس الباب. كان قد جاء بعض الاصدقاء ليتمنوا لافتوشنكو وزوجته سفرة سعيدة ، وحملوا معهم هدايا وعدة زجاجات من الشمبانيا . وكان معنى هذا وضع حد للمقابلة، ومع انه جرت بيني وبينه احاديث اخرى عديدة عام ١٩٦٢، ثم في عام ١٩٦٥، فان افتوشنكو لم يغير الرأي المعرب عنه في هذه المقابلة « الرسمية » تغييرا جوهريا.

وطال مكوثنا ، ومضينا نتحدث الى ساعة متأخرة من الليل الربيعي ، والنوافذ مشرعة على موسكو المعتمة العابقة بالشذى . وتناول الحديث روسيا والغرب ، والشعر والرسم . كان زائرو افتوشنكو فنانين وشعراء ، وقد ابدوا جميعا ابتهاجهم بحسن حظه لانه اتيح له القيام بالرحلة ؛ وادهشني ما ابداه هؤلاء الروس الشبان من توق عظيم لزيادة التبادل مع البلدان الاجنبية . والآن ، وبعد مرور ثلاثة اعوام ، لا اجد ان شيئا يحدث لاتاحة المجال امام الفنانين والرسامين السوفييت الاكثر موهبة للقيام بزيارات الى الخارج ؛ وبدلا من ذلك ، يصار في كثير جدا من الاحيان الى ارسال كتّاب عديمي المخيلة وذوي ذهنيات « رسمية » في بعثات تبادل ثقافي .

لقد حاول افتوشنكو عمدا ان يتغلب على ما في الثقافة السوفييتية من انعزالية مغلقة ، وعاد المرة تلو المرة ليردد ايمانه بوجود « اسرة اناس طيبين » في جميع انحاء العالم ، بصرف النظر عن ولاءاتهم السياسية او القومية . وفي شتاء ١٩٦٢ — ١٩٦٣ ، شنت حملة رسمية لخنق هذا الرأي ، وهو الرأي الذي يعتبر منحرفا من زاوية النظر الشيوعية . وفي سبيل نزع الثقة عن افتوشنكو في اعين معاصريه الشبان في روسيا ، الذين يتمتع فيما بينهم بشعبية فائقة ، استنجدت السلطات بشاب يتمتع هو الآخر باعتبار رفيع : الرائد الفضائي يوري غاغارين . فعمد غاغارين الى مهاجمة افتوشنكو ولا وطنيته المتجلية في

نشره سيرة حياته في الخـارج دون استئذان اتحاد الكتّاب . ولا حاجة الى القول بان صوت الطيار لم يكن من القوة بحيث يقدر على خنق صوت الشاعر . فقد ارتفع صوت الجيل الجديد الذي يقوده افتوشنكو وسمع في جميع ارجاء الاتحاد السوفييتي ، وقد هز مشاعر الجمهور السوفييتي واطلق رعشة فيه ؛ وهذه الرعشة مـا تزال تتصادى في طول البلاد وعرضها . واصبح الشعراء الشبان ذوي شهرة دولية ، الامر الذي يظهر الى اي حد اصبح جدار الانعزالية الثقافية شيئا باليا عفا عليه الزمان .

لقد اظهر افتوشنكو شيئا آخر كذلك — شيئا غير منتظر لا في روسيا وحسب بل في اي مكان اليوم : وهو ان الشاعر الشاب المقدام ، الذي يدعو الى الحرية ، قد يكسب الآن جمهورا شعبيا من المستمعين مماثلا للجمهور الذي كان يتمتع به لورد بايرون وفكتور هوغو في ايام الرومانسية . وقوة افتوشنكو ، كقوة هذين الشاعرين ، تكمن في شخصيته بكاملها ، وليس في منجزاته الادبية وحسب .

لقد ساعد افتوشنكو على اكتساب امكانية البقاء ، لنفسه ولغيره من اعضاء جيله : فلولا السنوات التي قام فيها بادائه الشعبي المحنك والمنفتح في آن معا ، لكان ربما انهار وسحق ، هو وجميع الذين امتدحهم ، في حملة ١٩٦٢ — ١٩٦٣ المضـادة للامتثال في الفن السوفييتي .

ولكن ، نظراً للتعاليم العقائدية غير المتبدلة التي تهيمن اليوم في روسيا ، ونظرا ايضا لمحدودية افتوشنكو نفسه الفنية ، فانه غير قادر على اشباع رغبة الشعب في حرية التعبير ، وهي الحرية التي كان هو اول من دشنها واستهلها . هذا هو مصير المبتدعين ، في احيان كثيرة . فثمة في عـام ١٩٦٥ جيل جديد من القراء ، اكثر تطلبا من الجيل السابق له ، وكثيرا ما يجد هذا الجيل ان افتوشنكو سطحي جدا في موضوعاته ، ومغرم جدا بصورته الخاصة ، ومستعد اكثر من اللزوم لتعديل بيت من الابيات عندما يطلب اليه رئيس التحرير ذلك .

على ان احدا ما لم يحلّ بعد محله في المسرح الادبي ، — ولا حتى اندريه فوزنسنسكي ، وهو شاعر ممتاز ينتمي الى الجيل ذاته ، كما انه صديق حميم لافتوشنكو ومنافس له في الوقت نفسه . ومع هذا فان زعامة افتوشنكو قد ابتدأت تظهر عليها علامات الافول . ففي الجو غير المستقر الذي يسيطر الآن على موسكو ، يبدو ان هناك رغبة دائمة التزايد من جانب الشعب ، في طلب الصدق والحقيقة . ومن جانب الرسميين المسيطرين على القضايا الادبية ، ثمة خوف متزايد من هذه الرغبة .